● حكاية من القرون الوسطى تعيش الآن في القرى الامامية

حانين .. قرية جنوبية يحكمها الاقطاع تحت رحمى المدافع الاسرائيلية!

حانين ، قرية جنوبية في قضاء بنت جبيل وتبعد عنها مسافة خمسة كلم كما تقع على مقربة من الحدود الاسرائيلية ، اذ لا تبعد اكثر من ٣ كلم من « كمب سمع » او مستعمرتي كفر برعم والمنصورة وبفصلها عن بنت جبيل بلدة عين ابل ، كما تحيط بها كل من قرى وبلدات وبل والطيري ورميش ، وتقع على رابية محاطة بمجموعة من التلال التي تسدل من حيث مظهرها العام انها كانت ارضا حرجية آمنت اليها يد المستغلين فعرتها واصبحت مجرعها عبارة عن ارض جرداء صخرية باستثناء بضع شجيرات من الزيتون القديم تمتد الى الجنوب من البلدة ومستثمرة من قبل مختارها .

ومعظم اراضيها لا تصلح الا لزراعة الحبوب وعلى الالات القديمة باستثناء بضع حواكير محاطة بالبلدة استصلحت من قبل مالكيها وبواسطة « المخل » لان البلدة لم تعرف الادوات الحديثة لغاية تاريخه من جرافة او تراكتور وخلاف ذلك.

ويبلغ عدد سكان بلدة حانين ٨٠٠ نسمة على وجه التقريب ولا يوجد فيها بلدية ، انما فرضت ظروفها المتخلفة وجود مختار مستبد والذي سبق ذكره ، قد اذاقها الامرين من تسلطه بحيث يستمد نفوذه من ال الاسعد كما لا يتورع عن ممالاة رجالات النظام وتلبية رغباتهم السياسية على حساب مصلحة المواطنين ، وقد استطاع ان يكون من اصحاب الحظوة لدى بعض العناصر من جهاز المخابرات الذي اشتهر بتسلطه في العهد السابق .

ومعظم اهالي القرية يقيمون فيها باستثناء قلة قليلة تعمل في بيروت على البور وفي حقل التنظيفات ، وتكاد تكون حانين البلدة الوحيدة التي لم تعرف طريق الاغتراب بين بلدات منطقة بنت جبيل . والمغترب الوحيد فيها هو شخص اسمه موسى سويدان يعمل في الكويت . اما بقية اهل القرية فانهم يتعاطون زراعة الحبوب على الطريقة القديمة وبواسطة الحيوانات، وتكاد تكون زراعة التبغ في هذه البلدة معدومة ، لان من يملك من فلاحيها مأذونية وهم قلة ، فان مأذونيته لا تتجاوز الالف وخمسماية متر مربع ، واغلبها امتلكت بالشراء . والمأذونية الكبيرة في البلدة هي مأذونة المختار التي تفوق العشرين دونم وتعادل نصف مأذونيات القرية ، فقد امتلكها ثمنا لخدماته الدنيئة بتأديب وتربية مواطنيه طوال العهود السابقة وثمنا لحسن سلوكه مع الريجي .

وبوجد بالاضافة لذلك في هذه البلدة ثلاثة مدرسين بينهم استاذ ثانوي ، وجميعهم حديثو العهد بالوظيفة ، وقد نقلوا علومهم خارج البلدة وكانوا يقطعون يوميا المسافات الطويلة لتلقي العلم في عين ابل او بنت جبيل سيرا على الاقدام مصحوبين (بزوداتهم) في قلب محفظة كتبهم لعدم وجود مدرسة في البلدة ، لان عمر المدرسة لا يتجاوز الاربع سنوات وهي عبارة عن مجموعة غرف متفرقة بين البيوت ، يجاور كل غرفة زريبة حيوانات وتدرس بها ثلاثة مدرسين عينوا منذ زمن قصير . اما على صعيد الحضارة ومستوى الرفي فالبلدة لم تعرف الطريق المعبدة الا حديثا ، وربما يقصد ايصالها الى بلدة دبل التي حرمت بسبب جيرتها لحانين ، وبوجد في البلدة سيارتان خصوصيتان ، الاولى سيارة « بوبك » فخمة يملكها المختار ، وسيارة خاصة يملكها الاستاذ الثانوي ، وهذه الاخيرة تكاد تكون سيارة البلدة ، ولا تعرف بلدة حانين ما يسمى بالاجهزة الكهربائية باستثناء تلفزيون وبراد وغسالة المختار . وبوجد بالاضافة لذلك ، وبدلا من المستوصف او عيادة الطبيب او النادي ، بيت « البك » وهو عبارة عن بناء فخم بناه احمد الاسعد ، وبتردد عليه كامل الاسعد من حين لآخر ، خصوصا في المواسم الانتخابية .

ان دخل الفرد في حانين منخفض جدا ، سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى عدم وجود اية موارد سوى مورد الزراعة واستغلال الارض غير المستصلحة لزراعة الحبوب . وتخلو البلدة من اي متمول على الاطلاق باستثناء المختار ونرى ان جميع اهالي البلدة مدينون وعاجزون عن تسديد ما عليهم من دين لان المورد الوحيد الذي يوفر السيولة النقدية هو ثمن محاصيل بضع عشرات من دونمات التبغ ، بالرغم من احتكار الريجي وجشعها ، وسرقة محصول الفلاحين ، وبالرغم من هذا الفقر المدقع ، فقد فرض المختار ضريبة على كل فلاح في البلدة بان يدفع له ثلث الانتاج من حبوب وثمن محاصيل التبغ ، وحتى ثمن « سواد » الدواب ، بالاضافة لحصة زلمه الخاص « مصري » حانين الذي ارتبط نفوذه بزعامة ال الاسعد ، واصبح مشهورا في كل الاوساط الجنوبية ويستند في فرضه لهذه الخوة الى حجة واهية ليس لها اي سند قانوني سوى دعم السلطة له ، انه يملك ربع القرية ، والربع الاخر ملكا لآل الاسعد ، ويتقاسم مع مقاتيح الاسعد الانتخابية في عين ابل وبنت جبيل . تلك « الخوة » لانهم يساعدونه على فرض ارهابه وتحكمه .

ولا تحرم السلطات المحلية من حصتها لانها اداة تنفيذ سطوة المختار ووسيلة تعزز سلطته ، وكثرة المحاضر المنظمة حتى بمن يقطعون الاغصان اليابسة من اشجارهم خير دليل على ذلك .

ولعل هذه المشكلة المزمنة بالذات هي المشكلة الرئيسيه في بلدة حانين ، والتي تفاعلت خلال عشرات السنين الماضيه ، فولدت وضعا حادا . جعلت اغلب اهالي البلدة يشعرون انهم امام وضع مصيري يحتم عليهم التخلص من تسلط الاقطاع السياسي واساليبه الظالمة ، ويشق عصا الطاعة عليه ، ويتجلى هذا الاصرار في طرح احد كبار السن بينهم وتصريحه « .. هالرقبة ما بقيمها الا واضعها » . وقد تعود هذه القضية بجذورها التاريخية الى زمن العصر التركي ، زمن ضريبة العشر ، عندما كان الفلاح يشعر ان ارضه تشكل عبئا عليه ، ولعل ذلك يظهر من خلال الحكايات المثيرة التي يتناقلها اهالي حانين ، من بينها ان شخصا لم يستطع ان يفي بالضرائب المفروضة عليه ، وكان يتهرب من وجه السلطة التي كانت تطارده لالقاء القبض عليه لوضعه في السجن ، مما اضطر اقاربه ان يتدخلوا لدى المختار في حينها ، لكي يسجل وفاته في دوائر النفوس من أجل وضع حد للاحقته ، وبالفعل قبل المختار في حينها التدخل ونظم له وثيقة وفاة سجلها في دفاتر النفوس مقابل وضع يده على ارضه ، ومن الطريف ان الشخص المذكور عاش عشرين سنة بعد وفاته في دفتر النفوس يعمل اجيرا في ارضه لحساب المختار الذي امتلكها !

ومن الروايات ايضا عن العهد التركي ان نجل المختار طلب للخدمة الاجبارية وعز على والده ان يرسله واخذ يفتش عمن يفتديه فوقع اختياره على احد فقراء الضيعة ، فاستدعاه والبسه على غرار عادته عباءته عند مدخل البيت واجلسه في الصدر مكانه بدلا من « راس الحفة » واستدعى زوجته طالبا منها ذبح دجاجة له اطعمه اياها حتى اصابته التخمة، وابلغه مشيئته فعز على هذا المسكين ان يرد له طلبه فسافر الى « الرديف » في اليوم التالي تاركا اولاده ولم يعد ، فكافاه المختار باحتلال ارضه ووضع يده عليها !

والحادثة الثالثة من سلسلة الحوادث المؤلمة قصة ام سميح حامد ، فبسبب وجود محاولات لاغتصاب ارضها مما اضطرها لطلب حماية شخص غريب عن الضيعة . هو خليل ابراهيم من عيناتا فقد باعته صورتا ارضها وهي ٤٢ قطعة ارض مقابل ٨٠ ل.ل بالاضافة الى مد واحد من القمح والشعير ، دون ان تقبض شيئا وذلك سنة ١٩٤٢ وعندما رغبت باستعادة ارضها دفع ولدها عشره الاف ليره لبنانية للسيد خليل ابراهيم والغريب ان هذه الحادثة ثابتة بموجب سجلات وقيود رسمية لدى كل من سجلات محكمة تبنين ودائرة كتابه عدل بنت جبيل !

ومن خلال الحوادث يتضح طريقة اكساب المختار وغيره المتنفذين للملكية الارض وبالتالي لا تعتبر حكاية اكساب الاقطاع للملكية ربع قريه حانين بعيدة عن حكايا ورواسات غيرهم وان كنا نجهل تفاصيلها علما بان قيود الطابو القديم لا تشير الى ملكيه غير الفلاحين ولا توجد مساحه في البلده ، والمختار يعترف في هذه الايام على طريقه سلاطين بني عثمان ، قاره تملك الفلاحين بخمسه الذي تحمله ، والافادات المحفوظه في سجلات العائمقامة خير دليل على ذلك ، وتاره اخرى تملك نفسه كلما تملك الاقطاع ، وكلما اعطى افاده بهذا الشكل الاخير ، اده « العبصر » في بلده مجاورة واثنى على التأييد « الامبراطور غليوم » في بلده اخرى! وقد اسمر المختار محمد عبدالرسول عباس في استقلاله واستثماره لجهود اهالي بلده حانين ، الذين كان يسيطر عليهم جهل مطبق ويعملون في الارض كالعبيد ، ويفرض عليهم علاقته بالاسياد الاقطاعيين .

غير ان تزايد التسلط والارهاب وممارسة مصري حانين المحمي بنفوذ المختار محمد عبد الرسول عباس جعل فلاحي البلده يتذمرون وقد رافق هذا التذمر ظهور بوادر الوعي السياسي الذي اخذ يشق خطاه بين الناشئة الجدد في القرية ، وفهم التناقضات الرئيسية لهذا الواقع وقد ساعدت الظروف الاخيره وبواجد العمل الفدائي على ارض الجنوب في تجميد قضية النزاع حول ملكية الارض حتى الاسبوع الماضي، كما تداخلت عدة عوامل ايجابيه من بينها العاطف مع العمل الفدائي ووجود بعض الملتزمين حزبيا على توضيح الرؤية لدى الفلاحين وكشف ابعاد قضيتهم الطبقية وصراعهم مع الاقطاع السياسي وازلامه المتنفذين امثال مختار حانين وزعرته .

واننا نرى ان الشكل الجديد الذي تمارسه الاقطاع السياسي على ارض حانين المرضه للتشرد في كل لحظة من قبل الصهاينه هو اقسى وامر واوهى من اسلوب الصهاينه، وبجعلنا بالتالي نؤكد ان تناقضات الاقطاع السياسي مع العدو الصهيوني ، ما هي الا تناقضات ثانويه .

والمطلوب في النهاية دعم حركة فلاحي حانين والقنطره ، وبنيها من قبل كافة فصائل الحركة الوطنية في هذا البلد ، وتقديم الدعم والعون ويد المساعدة لها بمختلف الطرق والاشكال كما اننا نرى انه بتوجب على الفلاحين رص صفوفهم وتشكيل لجان لطرح قضيتهم على الراي العام وتوجيه تحركهم بشكل فعال لوعيه الفلاحين .

(...)